التبيان
في
علوم القرآن

محاضرات في «علوم القرآن» تبحث عن نزوله وتدوينه، وجمعه وإعجازه
وعن التفسير والمفسرين، مع رد شبهات المستشرقين،
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

بقلم

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة

دار احسان

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

صابونی، محمد علی، ۱۹۲۶-
التبیان فی علوم القرآن: محاضرات فی "علوم القرآن"
تبحث عن نزوله و ترویته، و جمعه و اعجازه و.../ بقلم محمد
علی الصابونی. - تهران: داراحسان، ۱۴۳۰هـق / ۱۳۸۸هـش
۲۳۲ص. ISBN 978-964-356-029-4
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
کتابنامه به صورت زیرنویس.
۱. قرآن — علوم قرآنی. ۲. قرآن — تحقیق.
الف. عنوان.
۲ت۲ص/BP۶۹/۵ ۲۹۷/۱۵
کتابخانه ملی ایران ۲۰۰۳-۸۰م

التبیان فی علوم القرآن

✦إعداد:	محمد علی الصابونی
✦الناشر:	نشر احسان
✦عدد النسخ المطبوع:	۳۰۰۰ نسخ
✦الطبعة الثالثة:	۱۴۳۰هـق - ۱۳۸۸هـش
✦المطبعة:	مهارت
✦السعر:	5000

شابک: ۴-۰۲۹-۳۵۶-۹۶۴-۹۷۸ : 978-964-356-029-4

تهران. خ انقلاب. روبروی دانشگاه. مجتمع فروزنده. شماره ۴۰۶ تلفن: ۶۶۹۵۴۲۰۴

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه مذكّرات في (علوم القرآن) كتبتُها لطلبة (كلية الشريعة والدراسات الاسلامية) بمكة المكرمة تحقيقاً للمنهج الدراسي في الكلية، وحرصاً على فائدة أبنائنا الطلبة، الذين يرغبون في العلم، ويحرصون كل الحرص عليه. وقد رأيت ان أجمعها في كتاب تعميماً للفائدة ونشراً للعلم.

والله أسأل ان يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفعنا بها يوم الدين، ﴿**يَوْمَ لا ينفعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ★ إلاَّ مَنْ أتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (١)

وهُوَ حَسْبُنا ونِعْمَ الوكِيل.

غرة رجب الفرد ١٣٩٠ هـ.

محمد علي الصابوني
المدرس بكلية الشريعة والدراسات
الإسلامية بمكة المكرمة

---

(١) سورة الشعراء الآية ٨٨ و٨٩.

الفَصْلُ الأوّل

عُلُوم القُرآن

تمهيد

يقتضينا علم التفسير، أن نُلِمّ إلمامة موجزة، عن (علوم القرآن) وأن نعرف ما رافق هذا الكتاب المجيد، من عناية فائقة، وجهود واسعة، وأبحاث مستفيضة، بذلت كلها في سبيل خدمة هذا الكتاب العزيز، على أيدي اساتذة أعلام، وعلماء فطاحل، أفنَوْا أعمارهم في سبيل الحفاظ على هذا التراث الكريم، والكنز الثمين، من لدن عصر نزول القرآن إلى يومنا هذا، ثم انتقلوا الى جوار الله وقد خلّفوا لنا ثروة علمية هائلة، لا ينضب معينها، ولا تنتهي دررها، على كرّ الدهور، ومرّ الأزمان، ومع كلّ هذه الجهود المبذولة ـ في القديم والحديث ـ فإن القرآن يبقى بحراً ذاخراً يحتاج إلى من يغوص في أعماقه، ليستخرج منه اللآلىء والدرر.

ولقد تسابق الفصحاء والبلغاء، والحكماء والشعراء، في وصف هذا القرآن، وسرد محاسنه وفضائله، ولكننا لا نجد أبلغ ولا أسمى من وصف صاحب الرسالة، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: «كتابُ اللّه فيه نَبَأ مَنْ قَبْلَكُم، وخبَرُ مَا بَعْدكم، وحُكْمُ ما بينَكُم، هو الفَصْلُ ليس بالهزلِ، من تركه من جبّارٍ قَصَمه الله، ومَنِ ابْتَغى الهُدى في غيره أضلّه الله، هُو حبْلُ اللهِ المتين، وهو الذكر الحكيم، وهوَ الصّراطُ المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة،

ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلقُ[1] على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ★ يَهْدي إلى الرّشْدِ فآمنّا به..﴾[2] مَنْ قالَ به صَدَقَ، ومن عمل به أجِر، ومن حَكَمَ به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدي الى صراط مستقيم»[3].

ما المقصود بعلوم القرآن؟

يقصد بعلوم القرآن الأبحاث التي تتعلق بهذا الكتاب المجيد الخالد، من حيث النزول، والجمع، والترتيب، والتدوين، ومعرفة أسباب النزول، والمكّي منه والمدني، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة التي تتعلق بالقرآن العظيم، أوْ لها صلة به.. والغرض من هذه الدراسة فهم كلام الله عز وجل على ضوء ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام من توضيح وبيان، وما نقل عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، حول تفسيرهم لآيات القرآن، ومعرفة طريقة المفسرين وأساليبهم في التفسير، مع بيان مشاهيرهم ومعرفة خصائص كلٍ من المفسرين، وشروط التفسير، وغير ذلك من دقائق هذا العلم.

تعريف القرآن:

(هو كلام الله المعجز، المنزّل على خاتم الانبياء والمرسلين، بواسطة الأمين جبريل عليه السلام المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس.)

وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين أنزله الله تبارك وتعالى ليكون دستوراً للامة، وهداية للخلق، وليكون آية على صدق الرسول، وبرهاناً ساطعاً على نبوته ورسالته، وحجة قائمة الى يوم الدين تشهد بأنه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو

---

(١) أي لا يبلى ولا تذهب جدته على كثرة القراءة والترداد.

(٢) سورة الجن، الآية: ١، ٢.

(٣) رواه الترمذي في باب «فضائل القرآن».

« المعجزة الخالدة » التي تتحدى الأجيال والامم على كرّ الازمان ومرّ الدهور ، ولله درّ « شوقي » حيث يقول :

« جاء النّبيُّون بالآياتِ [1] فانصرمتْ [2] وجئْتنـــا بكتـــابٍ غير منصرمِ »
« آيـاتـهُ كلّما طـــالَ المدَى [3] جُـــدُدٌ يـــزينهـــن جمالُ العِتْـــقِ والقِـــدَمِ »

« فضائل القرآن » :

وقد وردت آثار كثيرة في فضائل القرآن وعلومه ، منها ما هو متعلق بفضل التعلم والتعليم ، ومنها ما هو متعلق بالقراءة والترتيل ، ومنها ما له علاقة بحفظه وترجيعه . كما وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل ، تدعو المؤمنين الى تدبره ، وتطبيق احكامه ، والى الاستماع والإنصات عند تلاوته ، نذكر بعض هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة :

الآيات الكريمة :

أولاً ـ قال تعالى ﴿ **إنّ الّذين يَتْلونَ كتابَ اللهِ ، وَأقَامُوا الصّلاةَ ، وَأنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تبُورَ** ﴾ [4] .

ثانياً ـ وقال تعالى ﴿ **وإذَا قُرِىءَ القُـرْآنُ فَـاسْتَمِعُـوا لَـهُ وأنْصِتُـوا لعلّكُـمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [5]

ثالثاً ـ وقال تعالى ﴿ **أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أم عَلى قُلُوبٍ أقْفَالها** ﴾ [6] .

---

(١) المراد بالآيات هنا المعجزات التي أيد الله بها رسله الكرام .
(٢) انصرمت : أي ذهبت بذهابهم وانقضت بوفاتهم فلم يعد لها وجود .
(٣) المدى : الزمان الطويل .
(٤) سورة فاطر ، الآية : ٢٩ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .
(٦) سورة محمد ﷺ ، الآية : ٢٤ .

الأحاديث الشريفة:

أولاً: وقال ﷺ: « خيركُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَه » رواه البخاري.

ثانياً: وقال صلوات الله عليه: « الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكِرام البررة والذي يقرأ القُرْآن ويتعتع فيه (أي تصعب قراءته عليه لعيّ لسانه) وهو عليه شاقّ له أجران » رواه مسلم.

ثالثاً: وقال أيضاً: « أشرافُ أمّتي حَمَلَة القُرْآن » رواه الترمذي.

رابعاً: وقال أيضاً: « اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » رواه الترمذي.

خامساً: وقال أيضاً: « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأتْرُجّة ريحها طيّب، وطعمها طيب ».

سادساً: وقال أيضاً: « إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم... » متفق عليه.

وينبغي للدارس لعلوم القرآن ان يتأدب بآداب القرآن، ويتخلّق بأخلاقه، ويكون غرضه من وراء العلم (رضوان الله والدار الآخرة لا حطام الدنيا وأن يعمل بما فيه ليكون حجة له يوم القيامة فقد صح في الحديث الشريف (القرآن حجة لك او عليك »[1]. قال شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله: (من لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأ القرآن ولم يتدبر معانيه فقد هجره، ومن قرأه وتدبره ولم يعمل بما فيه فقد هجره) يشير بذلك الى قوله تعالى ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إنّ قَوْمي اتّخذُوا هَذَا القُرآنَ مَهْجُوراً**﴾[2].

---

(١) انظر تفسير القرطبي، الجزء الأول.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء عديدة كلها تدلّ على رفعة شأنه، وعلوّ مكانته، وعلى أنه أشرف كتاب سماوي على الإطلاق.. فيسمى (القرآن) و (الفرقان) و (التنزيل) و (الذكر) و (الكتاب) الخ كما وصفه الله تبارك وتعالى بأوصاف جليلة عديدة منها (نور) و (هدى) و (رحمة) و (شفاء) و (موعظة) و (عزيز) و (مبارك) و (بشير) و (نذير) الى غير ذلك من الأوصاف التي تشعر بعظمته وقدسيته.

وجه التسمية:

أ ـ اما تسميته (بالقرآن) فقد جاء في آياتٍ كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**ق. وَالقُرآن المَجيدِ**﴾ [1] وقوله تعالى ﴿**إنّ هَذَا القُرآن يَهْدي لِلَّتي هِيَ أقْوَمُ**﴾ [2].

ب ـ وأما تسميته (بالفرقان) فقد جاء في قوله تعالى ﴿**تَبَارَكَ الّذي نَزّلَ الفُرْقانَ على عَبْدِهِ لِيَكونَ لِلْعَالمِينَ نَذِيراً**﴾ [3].

جـ ـ وأما تسميته (بالتنزيل) ففي قوله تعالى ﴿**وإنّهُ لَتَنْزِيلُ رَبّ العَالَمِينَ ★ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ**﴾ [4].

د ـ وأما تسميته (بالذكر) ففي قوله تعالى ﴿إنّا نَحْنُ نَزّلْنا الذّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظُون﴾ [5].

هـ ـ وأما تسميته (بالكتاب) ففي قوله تعالى ﴿**حم ★ والكِتابِ المُبين ★ إنَّا أنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكة**﴾ [6].

---

(١) سورة ق، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٢، ١٩٣.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٦) سورة الدخان، الآيات: ١ ـ ٣.

وأما الاوصاف فقد ورد فيها آيات عديدة، وقلّما تخلو سورة من سور القرآن من وصف رائع مجيد لهذا الكتاب الذي أنزله رب العزّة ليكون معجزة خالدة لخاتم الانبياء نذكر منها:

أولاً ـ قوله تعالى ﴿**يا أيّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبّكُم وَأنْزَلْنَا إلَيْكُم نُوراً مُبِيناً**﴾ (١).

ثانياً ـ وقوله تعالى ﴿**ونُنَزّلُ من القُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤمِنِينَ، ولا يَزيدُ الظّالِمينَ إلاّ خَسَاراً**﴾ (٢).

ثالثاً ـ وقوله تعالى ﴿**قُلْ لِلّذينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفاء..**﴾ (٣).

رابعاً ـ وقوله تعالى ﴿**يا أيّها النّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبّكُمْ وَشَفَاءٌ لما في الصّدور وَهُدًى ورَحْمةٌ للمؤمنين**﴾ (٤).

والقرآن كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآناً هكذا يرى بعض العلماء ويستدلون بقوله تعالى: ﴿**إنّ علَيْنا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ★ فَإذا قَرَأْنَاهُ فَاتّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ (٥) أي قراءته فالقرآن على هذا الرأي يكون مشتقاً، ويرى بعض العلماء انه ليس مشتقاً من قرأ وإنما هو (اسم علم) لهذا الكتاب المجيد فهو مثل (التوراة) ومثل اسم (الانجيل) وهذا رأي الإمام الشافعي رحمه الله. انظر كتاب (مباحث القرآن للأستاذ منّاع القطان).

متى ابتدأ نزول القرآن:

كان بدء نزول القرآن الكريم، في السابع عشر من رمضان، لأربعين سنة خلت من حياة النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام، فبينما كان رسول الله ﷺ يتحنّث (أي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة فصلت: جزء من الآية: ٤٤

(٤) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٥) سورة القيامة، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

يتعبّد) في غار حراء، إذ نزل عليه الوحي (جبريل الأمين) بآيات الذكر الحكيم فضمّه الى صدره ثم أفلته ـ فعل ذلك به ثلاث مرات ـ وهو يقول له في كل مرة (إقرأ) والرسول الكريم يجيبه (ما أنا بقارىء) أي لست أعرف القراءة، وفي المرّة الثالثة قال له: ﴿إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ★ خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ★ إقْرأْ وربّكَ الأكْرَمُ★ الذي عَلّمَ بالقَلَمِ ★ عَلّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

فكان ذلك بدء نزول الوحي، وبدء نزول القرآن، ولقد سبق نزول بعضُ الإرهاصات (أي الإشارات والدلائل) التي تدلّ على قرب الوحي وتحقّق النبوّة للرسول الكريم، ومن هذه الدلائل (الرؤيا الصادقة) في النوم، فكان صلوات الله عليه لا يرى رؤيا الا وقعت كما رآها في منامه، ومنها (حبّه للعزلة والخلوة) فكان يخلو بغار حراء يتعبّد ربه فيه.

رواية البخاري:

وقد أخرج البخاري في صحيحه في باب (بدء الوحي) ما يشير الى هذا، والى كيفية نزول القرآن، حيث روى بسنده عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت:

«أول ما بُدِىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثلَ فلق (٢) الصبح، ثم حُبّبَ إليه الخلاء (٣)، وكان يخلو (بغار حراء) فيتحنّثُ فيه (وهو التعبّد) الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع (٤) إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك (٥) فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني (٦) حتى بلغ مني

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) فلق الصبح، نور الصبح وضياءه.

(٣) الخلاء، أي العزلة.

(٤) ينزع: أي يرجع.

(٥) الملك: المراد به جبريل عليه السلام.

(٦) فغطني: أي ضمني إلى صدره.

الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ...﴾ الآيات فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده»[1].

ونزول القرآن في شهر رمضان فيه نصٌ صريح واضح في كتاب الله عز وجلّ حيث يقول عزّ من قائل:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الّذي أُنْزِلَ فيهِ القُرْآنُ، هُدَىً للنّاسِ، وبَيِّناتٍ منَ الهُدى والفُرْقَان﴾[2]. أوأما كون الملك الذي نَزَل به هو (جبريل) عليه السلام فقد ثبت أيضاً بنص صريح في القرآن وهو قوله تعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمينُ★ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ★ بِلِسانٍ عرَبِيٍ مُبِينٍ﴾[3]. وقوله تعالى:

﴿قُلْ نَزّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِكَ بالحقِّ، لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنُوا، وَهُدَى وبُشرى لِلْمُسلِمِينَ﴾[4].

والمراد بالروح الأمين، او روح القدس، انما هو (جبريل) عليه السلام باتفاق المفسّرين فهو أمين الله على وحيه، وهو الذي نزل بالوحي على جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

أول ما نزل وآخر ما نزل:

أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الأولى من سورة العلق ﴿إقرأ بِاسْمِ ربّكَ﴾[5] كما مرّ سابقاً في حديث البخاري، وأما آخر ما نزل من القرآن فهو قوله

---

(١) انظر صحيح البخاري، الجزء الأول.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ - ١٩٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٥) سورة العلق، الآية: ١

تعالى: ﴿واتّقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله، ثمّ تُوَفّى كُلّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[1]. هـذا هـو الصحيـح الراجـح الذي اختـاره العلماء وعلى رأسهـم (السيوطي) وهو منقول عن حَبْر هذه الأمة (عبد الله بن عباس) رضي الله عنهما فقد أخرج النسائي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «آخر شيء نزل من القرآن ﴿واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله..﴾ وقد عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ ثم مات ليلة الإثنين في الثالث من ربيع الأول»[2].. وأما قول بعضهم: إنّ آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى ﴿اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً...﴾[3] الآية فهو رأي غير صحيح لأن هذه الآية الكريمة نزلت على رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو واقف بعرفة، وقد عاش ﷺ بعدها ٨١ واحـداً وثمانين يوماً وقبل وفاته بتسع ليالٍ نزلت آية البقرة ﴿واتّقُوا يَوْماً..﴾ فتكون هي آخر ما نزل، لا آية المائدة، وهذا هو الرأي الصحيح، وبنزول هذه الآية الكريمة انقطع الوحي فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد نزول ختام القرآن، بعد أن أدى الأمانة، وبلّغ الرسالة، وهدى الناس إلى دين الله.

آية المائدة متأخرة في النزول:

ومما يدل على ان آية المائدة نزلت في حجة الوداع ما روي في صحيح البخاري أن يهودياً جاء الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم لو علينا مَعشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً! فقال عمر: وأي آية تعني؟ قال قول الله تبارك وتعالى ﴿اليومَ أكملْتُ لَكُمْ دينَكُمْ، وأتْمَمْتُ عليكُم نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسلامَ ديناً﴾ فقال له عمر: والله إني لأعلم المكان الذي نزلت فيه، والساعة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٢) أنظر: كتاب الأتقان في علوم القرآن للسيوطي.

(٣) سورة المائدة، الآية: (٣).

التي نزلت فيها، نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ بعرفة، في يوم الجمعة، بعد العصر [1] أي أنها نزلت في يومٍ هو من أعظم الاعياد الإسلامية، فهو عيد على عيد..

تنبيه:

أورد العلامة السيوطي في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) بعض الإشكالات على أول ما نزل من القرآن، وآخر ما نزل، وأجاب عنها بأجوبة سديدة نلخصها فيما يلي:

الإشكال الأول: أنه روي في الصحيحين من حديث (جابر بن عبد الله) أنه سئل: أيّ القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿**يا أيها المدّثّر**﴾ [2] فقيل له: بل ﴿**إقرأ باسم ربك**﴾ [3] فقال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**إني جاورت بحِراء فلما قضيت جواري نزلتُ فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا (جبريل) فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثّروني فأنزل الله ﴿يا أيها المدّثّر﴾**» فهذا الحديث يدلّ على ان سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن، وقد أجاب عن ذلك السيوطي بقوله: ويجاب عن هذا الحديث بأجوبة: أحدها: أنّ السؤال كان عن نزول سورة كاملة فبيّن أنّ سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (إقرأ) فإنها أول ما نزل منها صدرها ويؤيد هذا ما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله ﴿**يا أيها المدّثر**﴾ فقوله الملك الذي جاءني بحراء يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها ﴿**إقرأ باسم ربّك**﴾ ثم سرد أجوبة أخرى لا حاجة الى ذكرها.

وأما الإشكال الثاني: وهي أن آية المائدة وهي قوله تعالى ﴿**اليَوْمَ أكملتُ لَكُمْ**

---

(١) انظر: صحيح البخاري، باب التفسير.

(٢) سورة المدثر، الآية: ١.

(٣) سورة العلق، الآية: ١.

دينَكُمْ..﴾[1] تدل على أن الدين قد كمل وتمّ فكيف تنزل بعد ذلك آيات ونقول إنها ختام القرآن؟ والجواب على ذلك: إن الله عز وجل قد أكمل الدين ببيان الفرائض والأحكام، وبيان الحلال والحرام، فما تحتاج إليه الأمة قد بيّنه الله عزّ وجلّ، وفصّل أحكامه حتى أصبحوا على (المحجّة البيضاء)، وهذا لا ينافي أن تنزل بعض الآيات الكريمة التي فيها التذكير والتحذير من عذاب الله، وفيها تذكير الناس بالوقفة الكبرى بين يدي أحكم الحاكمين، في ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم.. وقد صرّح بهذا جماعة من العلماء حتى قال السُدّيّ: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام[2].

أول ما نزل في القتال، والخمر، والأطعمة:

أولاً ـ نزلت في القتال آيات عديدة، ولكنّ هذه الآيات التي نزلت في شأن القتال كلها مدنيّة، لأن المسلمين ـ في مكة ـ كانوا في حالة ضعف، فكان جهادهم للأعداء باللسان لا بالسِنَان، ولم يسمح لهم بقتال الأعداء إلا بعد الهجرة، أي بعد ان تقوّى المسلمون وكثروا وأصبح لهم دولة في المدينة المنوّرة فنزل عند ذلك الإذن بالقتال، وأول آية نزلت في القتال هي قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج:

﴿أُذِنَ لِلّذينَ يُقَاتَلُونَ بأنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإنّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ★ الّذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ إلاّ أنْ يَقُولوا رَبّنَا اللهُ، وَلَوْلا دَفعُ الله النّاس بَعْضَهُمْ ببعض لَهُدِمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فيهَا اسْمُ الله كَثيراً، وَلَيَنصُرنّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنّ الله لَقَوِيٌّ عزيزٌ﴾[3]. فأنت ترى في هذا النصّ الكريم ما يوضح الحكمة من مشروعية الإذن بالقتال، فلم يكن القتال إلا دفعاً للظلم، ودفعاً للعدوان، ولم يُشْرع إلا دفاعاً عن المظلومين وردعاً للمعتدين كما هو صريح النص الكريم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أنظر: الإتقان، ص ٢٧ السيوطي.

(٣) سورة الحج، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

ثانيا ـ وأما الخمر فقد نزلت فيها آيات عديدة، وكان أول ما نزل فيها قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ ومَنافِعُ للنّاسِ، وإِثْمُهُما أَكْبَرُ من نَفْعِهِما...**﴾[1].

روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء ﴿**يسألونك عن الخمرِ والميسرِ..**﴾ الخ.

ثالثاً ـ وأما أول ما نزل من الأطعمة في مكة فقوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿**قُلْ لا أَجِدُ في ما أُوحِيَ إِليَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفوحاً أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيرَ باغٍ ولا عَادٍ، فإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[2].

وهذه أوائل مخصوصة ببعض الأحكام التشريعية التي نزلت بها أحكام القرآن وهي مما ينبغي معرفته ليقف الانسان على سرّ التشريع الاسلامي الدقيق، الذي راعى حاجات الناس ومصالح البشر، والتي هي أحد الأسس الحكيمة التي سلكها الإسلام في معالجة الأوضاع الاجتماعية، والأمراض الخلقية التي كان عليها الناس في الجاهلية كما سنوضح ذلك في بحث آخر إن شاء الله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

الفَصْلُ الثَّانِي
أَسْبَابُ النُّزُول

أَسْبَابُ النَّزول:

معرفة (أسباب النزول) له أثر كبير في فهم معنى الآية الكريمة، ولهذا اعتنى كثير من العلماء بمعرفة أسباب النزول، حتى أفرد له بالتصنيف جماعة من العلماء كان من أقدمهم (علي بن المديني) شيخ البخاري رحمه الله.. ومن أشهر ما كتب في هذا الفن كتاب (أسباب النزول) للواحدي، كما ألّف فيه شيخ الاسلام (ابن حجر) وألّف فيه أيضاً العلامة (السيوطي) كتاباً حافلاً عظيماً سماه (لُباب النّقُول في أسباب النزول).

ولمعرفة أهمية هذا النوع من علوم القرآن، والتأكد من ضرورته لفهم معاني الآيات الكريمة نستطيع أن نقول: إن بعض الآيات لا يمكن فهمها أو معرفة أحكامها إلا على ضوء سبب النزول، فمثلاً قول الله تعالى: ﴿**وَ لله المَشْرِقُ والمغرِبُ فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمّ وَجْهُ الله..**﴾[1] الآية قد يفهم منها جواز التوجه في الصلاة إلى غير القِبْلَة، وهذا الفهم خاطىء لأن استقبال القِبْلة شرط لصحة الصلاة، وبمعرفة سبب النزول يتّضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان في (سفر)، وأضاع القِبْلَة فلم يعرف جهتها فإنه يجتهد ويتحرّى ثم يصلي فإلى أي جهة صلى تصحّ صلاته، ولا تجب عليه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

إعادة الصلاة فيما إذا تبيّن له بعد الانتهاء خطأ توجهه، فالآية إذاً ليست عامة إنما هي خاصة فيمن جهل القِبلة فلم يعرف جهتها.

ومثال آخر على أهمية سبب النزول في فهم الآية أن قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

إنما نزلت في الخمر، وقد يُفهم من هذا النص الكريم إباحة شرب الخمر - كما ظن بعض الجهلة - حيث قالوا: الخمر مباحة واحتجوا بالآية الكريمة، ولو علموا سبب نزولها لم يفتروا ذلك، فقد روي أنّه لما نزل تحريم الخمر في قوله تعالى **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** (٢) قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: فكيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا، وكانوا يشربون الخمر وهي رجسٌ؟ فنزلت الآية الكريمة تبيّن ان من شربها قبل التحْريم فإن الله قد عفا عنه وليس عليه ذنب أو إثم لأن الله لا يؤاخذ على ما سبق من العبد قبل الإسلام أو قبل التحريم، وبذلك تفهم الآية ويبقى النص القطعي في تحريم شرب الخمر.

فوائد معرفة أسباب النزول:

قد يظن بعض الناس أنه لا طائل تحت هذا الفن، وليس له أثر كبير لجريانه مجرى التاريخ والقَصَص، فإن أسباب النزول - على زعمهم - ليست ضرورية لمن أراد تفسير كتاب الله. وهذا زعم خاطىء وقول مردود، لا يصدر من عالم بالكتاب، مطّلع على أقوال المفسّرين. وها نحن ننقل طرفاً من آراء بعض العلماء، ثم نعقبها بذكر فوائد أسباب النزول.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠.